الفصل الثالث

القدر ـ وعلامات القيامة

١ ـ ٣. ضعف النفس البشرية.

كان ذلك في بابل بعد سقوط مدينة القدس بثلاثين عاماً. عندما أرقت ذات ليلة أرقاً شديداً وبدأت أقارن بما حل بمدينة القدس من خراب. وما يقابله الآن من رخاء اقتصادي ونعمة يتمتع بهما أفراد الجالية اليهودية في بابل.

أنا عزرا الملقب بـ شالت إيل[1] كنت متضايقاً جداً. وبدأت أشرح همومي ومخاوفي للّه عزّ وجل. قلت: إلهي مولاي وسيدي. أنت الواحد الأحد خلقت العالم بكلمة كن فكان. وخلقت آدم بيديك من تراب ثم نفخت فيه روح الحياة. وأسكنته جنة عدن التي أنشأتها قبل أن تنشئ الأرض. أمرت آدم أمراً واحداً فعصاك، فأهبطته إلى الأرض ليعاني هو وأحفاده من الموت. وتكاثر آدم وبنوه وأصبحوا شعوباً وقبائل عديدة تعمر الأرض.

---

(١) معناها: سألت اللّه.

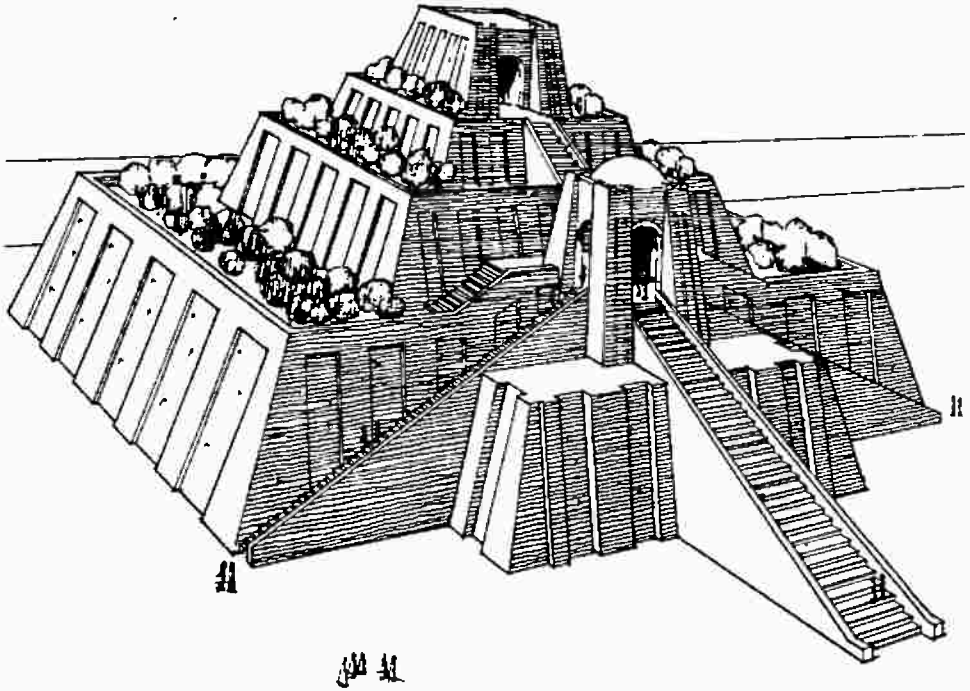

برج بابل

وبعد زمن بدأت تلك الشعوب تتصرف على هواها مبتعدة عن أوامرك منغمسة في الشر. لقد أمهلتها ولكنك لم تهملها، وأرسلت عليها مياه الطوفان تغرق كل شيء بإذن ربها، وأنجيت نوحاً وأولاده ومن تبعه من المؤمنين وأهلكت الباقين.

وبارك اللّه نوحاً وأولاده فنموا وتكاثروا وأصبحوا شعوباً وقبائل جديدة. ولكنهم تصرفوا كما لايرضيك وانغمسوا في الشر والإثم أكثر ممن سبقهم من الأمم والشعوب.

عند ذلك انتخبت إبراهيم، اصطفيته، أحببته وأطلعته على ملكوت السموات والأرض، وقطعت معه عهداً أبدياً بأنك لن تهجر ذريته ولن تضيعها. وهبت له

إسحاق ومن بعد إسحاق يعقوب الذي تفرعت منه أسباط بني إسرائيل. أما عيسو[1] فقد أهملته.

٢ ـ ٣. كل ممنوع مرغوب.

مولاي. لقد أنجيت بني إسرائيل من فرعون مصر. وواعدتهم عند جبل سيناء. وهناك تعانقت الأرض مع السماء. يومها تزلزل الجبل من هيبتك وأضاء المكان من نور حضرتك. ومن وسط الزلزال ودخان النار والريح العاصفة استلم أبناء يعقوب ألواح شريعتهم منك، ولم تجبر اليهود على اتباع الخير. ولم تمنعهم من فعل الشر، بل تركت لهم حرية الاختيار بعد أن أوضحت لهم طريق الخير المنجي، الذي عليهم أن يسلكوه وطريق الشر والإثم المهلك الذي عليهم أن يجتنبوه.

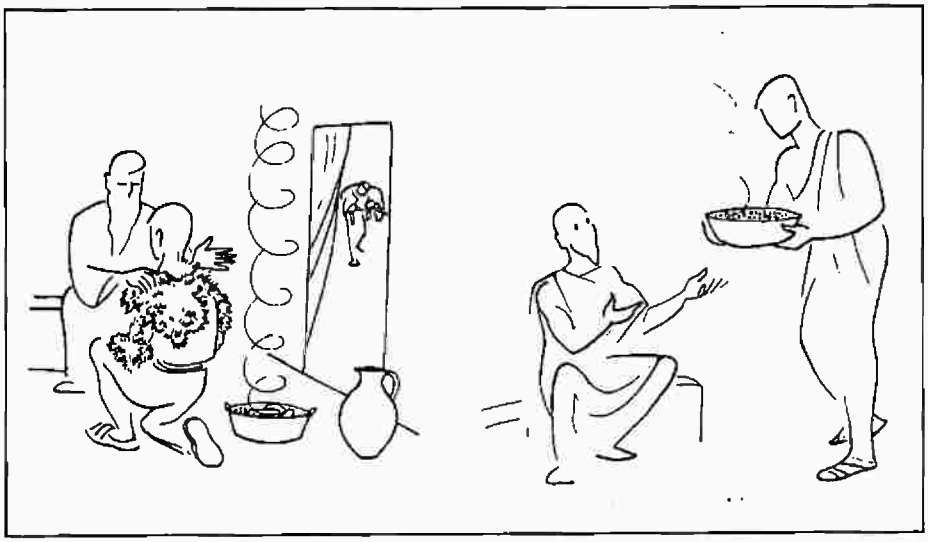

(١) هو توأم يعقوب. كان شهماً كريماً. تزوج من ابنة عمه إسماعيل وانضم إلى العرب. والتوراة تقول إن الآدوميين كانوا من أحفاده. احتال عليه يعقوب فاشترى منه البكورية بصحن عدس ثم احتال عليه مرة أخرى وسلبه بركات أبيه إسحاق وهذا بحسب ادعاء اليهود. كما ورد ذلك في سفر التكوين.

آدم بالذات ضعف أمام بواعث الشر الكامنة في النفس الإنسانية. لم يستطع مقاومة إغراء الممنوع. أخطأ آدم وهزم، رغم وضوح الطريق أمامه لذلك هبط من عليائه.

أولاد آدم وأحفاده انغمسوا في الإثم. لم يستطيعوا مقاومة أهوائهم رغم وضوح مبادئ الخير والصلاح في نفوسهم وضمائرهم، ورغم معرفتهم للقانون الإلهي، وذلك أن كل ممنوع مرغوب، لذا نرى أن الخير مؤقت والشر مستمر.

بعد عديد من السنين أرسل اللّه نبيه داوود ليبني مدينة السلام، حيث تقدم القرابين والأضاحي باسم اللّه تعالى. ولكن سكان مدينة القدس المقدسة عصوا أوامرك وتمردوا على شريعتك كما فعل ذلك من قبل أبوهم آدم وذريته من بعده. ذلك أنهم يحملون أيضاً بواعث الشر في نفوسهم لذلك سقطت المدينة المقدسة وداسها أعداؤها.

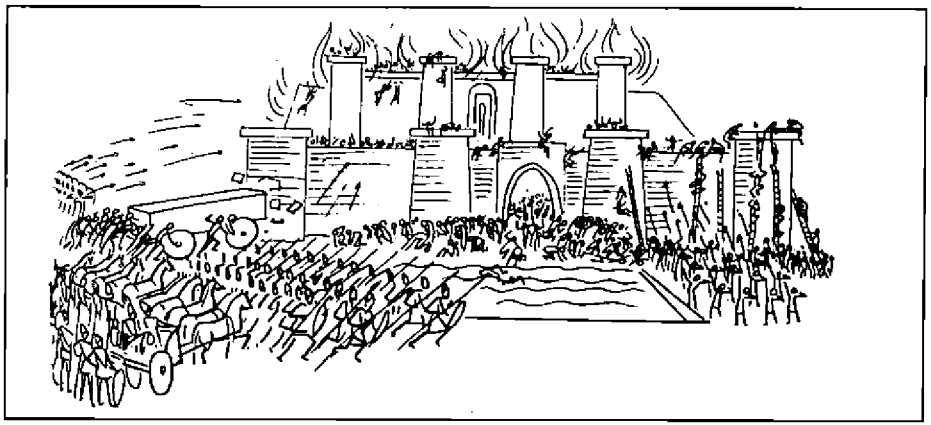

٣ ـ ٣. عقوبة شعب اللّه الخاص.

حدثت نفسي وقلت لها: إن اللّه سمح للبابليين قهر القدس ذلك أنهم لابدّ أفضل منا. ولكن عندما دخلت بابل وجدت أهلها يرتكبون آثاماً ومخازي أكثر من أن أستطيع عدها. وخلال ثلاثين عاماً رأيت خاطئين كثيرين ومذنبين عديدين، لذلك تشوشت أفكاري إذ رأيت اللّه يمدّ الكافرين في طغيانهم ولايعاقبهم، وفي

الوقت ذاته يحاسب شعبه الخاص ويطبق عليه أشدّ العقوبات. لم أفهم الحكمة من هذا التصرف ولم أعرف كيف أوازن بين الأمور.

بالتأكيد مدينة القدس أفضل عند اللّه من مدينة بابل، وبنو إسرائيل هم الشعب الوحيد الذي عرف اللّه وقبل شريعته، والشعوب الأخرى لاتعرف اللّه ولاتنتظر عهوده، وبنو إسرائيل لم يتلقوا أي مكافأة ولم يجنوا أي ربح[1] أو فائدة من إيمانهم.

لقد تنقلت في البلاد، وشاهدت حال العباد. رأيت الأجانب أولي ثروة وغنى وهم لايطبقون أوامر اللّه تعالى. بل هم منغمسون في الشر من أخمص أقدامهم إلى أعلى من رؤوسهم. وإذا ما وازنت بين آثامهم وأخطائهم مع أخطاء وآثام بني إسرائيل لرأيت أن كفة آثام الأجانب ترجح بسهولة.

وعلى طول الأيام ومدى الزمان كانت الشعوب تذنب وتخطئ تجاهك يا رب. ولكن هل توجد أمة من الأمم حفظت وصاياك كما فعل بنو إسرائيل؟ ربما يكون هناك عدد من الأفراد بين الأمم حفظ وصاياك وسلك طريق البر أمامك، ولكن لايوجد شعب بأكمله فعل ذلك.

٤ ـ ٣. قدرات الإنسان محدودة.

جاءني ملاك النور ـ أوريل ـ ليقول:

أرسلني اللّه تعالى إليك لأشرح لك أنك لاتستطيع تفسير ما يحدث أمامك من أشياء عادية. فهل تظن أنه بمقدورك فهم وتفسير غايات قضاء اللّه وقدره الذي يجريه على البشرية؟

أجبت: أظن أنه بإمكاني فهم ذلك.

---

(١) جزاء الإيمان والعمل الصالح هو الحياة الطيبة في الدنيا والخلود في الجنة في الآخرة. وفوائد الإيمان لاتعد ولا تحصى من كثرتها.

قال الملاك: إذاً امتحن قدرتك وإمكانياتك في ثلاثة أشياء تحيط بك، فإن أجبت عن أحد أسئلتي عندها أفسر لك بعضاً من غايات اللّه في قضائه وقدره. واشرح لك الدور الإيجابي لدوافع الشرّ الكامنة في النفس الإنسانية وأنها أساس التقدم الإنساني.

قلت: موافق يا سيدي فاسأل.

قال: أولا. كيف تزن رطلاً من النار.

ثانياً: كيف تقيس مكيالاً من الريح.

ثالثاً: كيف تعيد يوم البارحة الذي مضى[1]

قلت: لماذا تسألني مثل هذه الأسئلة التي ليس بمقدور بشر أن يجاوب عنها؟

قال: إذاً ما تقول لو سألتك عن عدد مساكن الأحياء المائية تحت البحر؟ ماذا تقول لو سألتك عن جداول الماء المنساب تحت الأرض؟

ماذا تقول لو سألتك عن مقدار المياه التي تحملها الغيوم في السَّماء؟

ماذا تقول لو سألتك عن مكان أبواب الخروج من عالم الموت؟

ماذا تقول لو سألتك أين تكون أبواب الجنة؟

لو أني سألتك مثل هذه الأسئلة لقلت لي كيف لي أن أعرف ماذا يوجد تحت البحر أو تحت الأرض أو ماذا في السماء؟. وكذلك تقول لي: لم أدخل عالم الأموات ولم أزر الجنة. كل ما سألتك عنه هو: النار ـ الهواء ـ اليوم الذي مضى. وتلك أشياء مألوفة لديك عايشتها وعاينتها منذ صغرك، فأظهرت عجزك، فكيف تسأل وأنت ذا العقل والإمكانيات المحدودة عن قضاء اللّه وقدره؟. وهل يمكن للإنسان الفاني فهم قدر اللّه الباقي؟

---

(١) استطاع الإنسان حديثاً قياس كمية الحرارة. واستطاع وزن الجزئيات وبالتالي وزن الغازات المحصورة في حيز ما. كما استطاع استعادة ذكرى الأمس بواسطة التسجيل المرئي والصوتي.

عندما سمعت هذا الكلام خررت ساجداً على الأرض وقلت للملاك: ألـم يكـن من الأفضل لنا لو لم نولد ونعيش فـي هـذا العـالم المليء بـالإثم والألـم، دون أن نفهم لماذا تجري الأحداث من حولنا هكذا؟.

٥ ـ ٣. التوازن في الطبيعة وفي الحياة.

أجاب الملاك أوريل: إن القدر يخلق التوازن في الطبيعة وفي الحياة. مثـلاً: لـو تركت الأشجار تتكاثر بعشوائية لامتلأت الأرض بالغابات. ولكن النار تـأتي علـى قسم كبير منها. ولايبقى سوى الأشجار المقدر لها أن تبقى.

وكذلك فإن الأمـواج تريـد أن تقتحـم اليابسـة ولكـن الشـاطئ يوقـف زحفهـا ويلزمها حدهـا، والإنسـان لايسـتطيع فهـم الأقـدار لأنـه ينظـر إليهـا بعيـن الهـوى والمصلحة الشخصية العاجلة. وكما فهمت أن للغابات حدوداً وللبحـار شـواطئ. وكما أنه ليس للأشجار أن تتجاوز حدودها، وللبحار أن تتخطى شواطئها. كذلك فإن الإنسان يسمع ويرى مـا يجـري حولـه علـى الأرض ولكنـه لايسـتطيع تعـدي حدوده وفهم ما يقدر في السماء.

قلت سيدي: إذاً لماذا أعطي الإنسان المقدرة على فهم كل شيء. أنـا لا أهتـم بما يجري في السماء. أنا فقط أهتم بما يجري حولنا من أحداث.

٦ ـ ٣. بذور الشر وحصادها.

لماذا سمح اللّه للأمم الأجنبية وطء بني إسرائيل وإهانتهم؟.
لماذا جعل شعبه الذي يحبه في قبضة يد الأمـم الوثنية التي لاتعترف باللّه؟.
لماذا حُرمنا الشريعة والعهود التي قطعها اللّه لأجدادنا؟.
لماذا لم يعد لنا أهمية وحرمة عند اللّه تعالى؟.
لماذا سحقنا وتركنا لنموت كالحشرات؟.
لماذا حياتنا قصيرة. أقصر من زفرة؟.
لماذا يرى اللّه أننا لم نعد نستحق رحمته؟.

لماذا لايفعل اللّه شيئا لمساعدة شعبه الخاص؟.

هذه هي أسئلتي التي أريد إجابة عنها.

أجاب الملاك أوريل: لو أنك عشت إلى الزمان الآتي لأعجبك ما سوف تراه، لأن هذا الحال سيزول. زمننا الحاضر مليء بالبؤس والشقاء، وهو غير مؤهل لتتحقق فيه جميع الأماني الطيبة والحياة المباركة، التي وعدها اللّه عباده الصالحين. والشر الذي تسأل عنه أصبح مزروعاً في كل مكان. وعلى الناس الأشرار حصاد مازرعوه . ولكن تريث قليلاً فإن وقت الحصاد لم يحن بعد. وبعد الحصاد وزوال الشر تماماً يتجدد العالم وتظهر نباتات الخير والصلاح.

بدأ الشر بذرة واحدة وذلك عندما خالف آدم أوامر اللّه. فالشر هو معصية اللّه تعالى. هل تتصور كم سيبلغ محصول شرور البشرية قبل حصاده النهائي الذي سيتم يوم الحساب؟

لك أن تتصور المحصول السَّيِّئ والضخم الذي جناه آدم بسبب معصية واحدة. فكم سيكون محصول أخطاء البشرية فظيعاً يوم الحساب!

سألت الملاك: كم سيطول الانتظار حتى يحصل هذا؟

لماذا تمتلىء حياتنا القصيرة بالأسى والألم؟.

أجاب أوريل: لاتكن عجولاً فاللّه الحليم يؤقت للأشياء أوقاتها بالشكل الصحيح. أما أنت فتنظر إلى الأمور من زاويتك الشخصية. أما اللّه فإنه يدبر أمر الكون بأجمعه. إن استعجالك للأمور يشبه استعجال أرواح المؤمنين الصالحين المحجوزة في عالم البرزخ تنتظر وتقول: كم سيطول مكثنا؟. متى يأتي يوم الحساب؟. متى نلقى جزاء أعمالنا الصالحة؟

ويجيبهم رئيس الملائكة (يرميل) قائلاً: سيحدث ذلك عندما يحضر إلى هنا كامل عدد أولئك الذين عانوا وتحملوا الاضطهاد من الآخرين بسبب إيمانهم كما تحملتم أنتم وعانيتم بسبب إيمانكم. لن يتغير شيء حتى يتمّ الزمان دورته التي قدرها اللّه له.

قلت للملاك: سيدي. أيتحتم على الأموات الصالحين انتظار مكافآتهم حتى يكمل أهل الأرض آثامهم؟.

أجاب: أليس على الحامل انتظار تسعة أشهر حتى يأتيها المخاض وبعدها تلد؟.

قلت: هذا صحيح يا سيدي.

قال الملاك: كذلك الأمر في عالم الأموات حيث يحفظ اللّه أرواح المؤمنين الصالحين في مكان يمكن تشبيهه بالرحم. وهو متشوق ليخرج إلى الوجود ما يحفظه منذ بداية الخليقة. كما يمكن تشبيهه بامرأة تستعجل انقضاء مدة حملها لتنتهي آلامها. وعندما يحدث ذلك فسوف تجد الأجوبة الشافية لجميع أسئلتك.

٧ ـ ٣. علامات القيامة.

قلت سيدي: هل لك أن تجيبني عن سؤال أقدّر أني أستطيع فهمه. ما هو مقدار الزمن المستقبل الآتي حتى ينتهي العالم؟. هل هو أطول من الزمن الغابر أم أقصر؟. أنا أعرف مقدار الزمن الذي مضى. ولكن لا أعلم مقدار المستقبل.

وللإجابة عن سؤالي طلب مني الملاك الوقوف على يمينه قرب النافذة وقال: سأريك مشهداً وأشرح لك مغزاه.

وقفت جانب الملاك ونظرت فإذا نارٌ عظيمة متألقة تمرّ من أمامي. وعندما ابتعدت النار خلفت وراءها دخاناً خفيفاً من أثرها، ثم مرّ أمامي سحاب ثقيل هطل منه مطرٌ غزير، ثم توقف هطول المطر وما زالت بعض قطرات ماء خفيفة عالقة في الجو تنزل ببطء.

قال الملاك: فكّر بما رأيت وقارن بين كمية المطر الهاطل وكمية المطر العالق في الهواء، وقارن بين النار المتألقة وما تركته من دخان. كذلك فإن الزمن الآتي أقل من الزمن الماضي وبنفس النسبة.

سألت الملاك: هل تظن أني قد أعيش إلى ذلك الزمان؟

أجاب: أنا لا أعرف إلى متى ستعيش. ولكن إذا كان سؤالك عن موعد القيامة فأنا أيضاً لا أعرف موعد حدوثها. ولكني أستطيع إخبارك عن العلامات والأحداث التي تسبقها. وهي:

يفقد الناس السكينة والطمأنينة ويعيشون في قلق نفسي، ويسيطر عليهم هيجان عصبي مدمر. يضمحل الإيمان ويختفي، ويضل الناس فلايعرفون طريق الحق.

تشيع الفاحشة بين الناس، وتكثر المعاصي والذنوب ويصبح الوضع الأخلاقي أسوأ مما تعرف أو تتصور.

أما مدينة بابل التي تحكم العالم الآن فستصبح خرائب وأطلالاً غير مأهولة أو مطروقة. وإن كتب الله لك عمراً وعشت إلى ذلك الزمان فسترى ما يحدث في تلك الفترة من اضطراب شديد وانقلاب في الأوضاع الطبيعية.

سوف تشرق الشمس من مغربها، ويتحول الليل نهاراً تشرق فيه الشمس، ويتحول النهار ليلاً يسطع فيه القمر[1]

سوف تسيل الدماء من الأشجار. سوف ينطق الجماد.[2]

ستضطرب الأمم. ستغير النجوم مساراتها.

سيحكم البلاد ملك لا يحبه أحد ولا يريده أحد.

ستهاجر الطيور والعصافير، ويُغسل السمك ويؤكل على شواطئ البحر الميت.

سيُسمع ليلاً صوت شخص لا يعرفه كثير من الناس. وكل شخص سيسمع هذا الصوت.

ستتصدع الأرض. وتنشقّ في عدة أماكن وتقذف باللّهب والحمم.

ستهجر الحيوانات البريّة الحقول والغابات.

ستحمل النساء أثناء دورتها الشهرية مسوخاً مشوهة.

---

(١) يتحول الليل نهاراً بسبب إضاءة الكهرباء والسهر بالليل. أما النهار الذي يتحول إلى ليل، فهو من زيادات المترجمين والناسخين.

(٢) الراديو ـ التلفزيون ـ الهاتف.....

سيصبح الماء الحلو مالحاً[1].

سيتعدى الأصدقاء على أصدقائهم ولن ترى فهماً أو تعقلاً.

سيختفي المنطق والبرهان ولن تجد أحداً يهتم بهما أو يسأل عنهما.

ستزداد الذنوب والخطايا، ويعم التعدي والاغتصاب، وستسأل كل بلدة البلدة المجاورة لها إذا رأت عدلاً أو صدقاً، أو مرّ بها أحد يدلّ على الخير، وسيكون الجواب بالنفي.

سيأمل الناس كثيراً ولكنهم لن يحصلوا على شيء.

سيعمل الناس بجد ولكنهم لن ينجحوا بأي عمل.

هذه هي علامات النهاية التي سمح لي أن أطلعك عليها، ولكن إذا واظبت على الصلاة والصيام مدة سبعة أيام أخرى فسوف أنبئك بأشياء جديدة.

بعد ذلك أفقت من حلمي وأنا أرتجف مرتعشاً وجاء الملاك ليشدّ على عضدي ويقوي همتي حتى استطعت أخيراً أن أتمالك نفسي، وأمشي على قدمي.

في تلك الليلة جاءني فلطئيل قائد الشعب والمسؤول عنهم ليسألني: أين أنت يارجل؟.

لماذا تبدو حزيناً؟. لماذا تهمل واجبك تجاه المنفيين من بني إسرائيل؟.

ألست المسؤول عنهم؟. أليسوا تحت إشرافك ورعايتك؟.

وقال: انهض يا رجل وتناول طعامك. ولا تتركنا بلا راع كقطيع غنم تُرك تحت رحمة الذئاب المتوحشة. عند ذلك غادر فلطئيل وتركني وحدي.

---

(١) يتغير طعم الماء بسبب التلوث. والأمطار الحمضية.